الرابط الاجتماعي عند نوربرت إلياس Norbert Elias: (1897-1990)

ولد " نوربرت إلياس" بـ بريسلو بألمانيا في 22 يونيو 1897 وتوفي بأمستردام بهولندا في 1 أوث 1990. اهتم "نوربرت إلياس" في أطروحته للدكتوراه التي ترجمت إلى اللغة الفرنسية في جزأين بمعالجة موضوع: حضارة القيم وديناميكية الغرب. أي بدراسة تطور المعايير، وقواعد السلوك في مجتمعات أوروبا الغربية منذ القرون الوسطى، وذلك من خلال تناوله بالتحليل لأشكال التبعية الاجتماعية المتبادلة، التي ميزت مرحلة القرون الوسطى كل مرحلة على حدة. وقد ألحَّ فيها " نوربرت إلياس" على التحول الذي حدث في شكل ضبط وتنظيم للغرائز والعواطف.

وفي هذا الإطار لاحظ " نوربرت إلياس" بأن الانتقال من مرحلة تاريخية إلى أخر، أو على الأقل بالنسبة للدول الأوروبية قد تم بشكل مختلف من دولة لأخرى، تبعا لاختلاف ميكانيزم منع الغرائز، والرقابة الذاتية عليها، مع العلم بأن هذا الانتقال قد تطلب توفر شرطين أساسين بل وضروريين لتحققه ألا وهما:

- وجود تمايز متقدم بين الوظائف.
- احتكار الدولة للعنف.

جدير بالذكر أن استبطان ميكانيزمات الرقابة على المشاعر، على الغرائز، وعلى العواطف، قد أدى إلى فصل أكثر وضوحاً، أو أكثر حدَّة، ما بين الفضاء الخاص، والفضاء العام، إلى الحدّ الذي أدى إلى قيام ثنائية بين الفرد والمجتمع، كما لو كانا حقيقتين متعارضتين.

فـ "نوربرت إلياس" يرى بأن الحركات الدالة على الحياء، والآداب في السلوك، هي الجانب المرئي في سيرورة الحضارة الأوروبية منذ عصر النهضة. إذ يحكى بأنه وحتى نهاية القرن السادس عشر (ق16) كان يمكن أن تشاهد الناس في ألمانيا مثلا أطفالا، رجالا، ونساء، عارية تماما تجوب الشوارع في طريقها الى الحمام العمومي، وغيرها من الأمثلة الأخرى، التي يمكن أن تكون محلا للتهكم، والسخرية، في أيامنا هذه حول استخدامات الجسد، أو آداب المائدة، ومنها على سبيل الذكر استعمال شوكة الطعام في الأكل، والتي كان حاكم فينيسيا اول من حصل عليها في القرن الحادي عشر (ق11) وكانت من سنين فقط، بل وكان قد أدين استخدامها آنذاك، من قبل رجال الدين، أو الكنيسة. وأما في

SISSAOUI FADILA

فرنسا فلم تظهر في البلاط الملكي إلا بوصول هنري الثالث للحكم، وقد كانت محل سخرية من قبل العامة. (كابان، 2010، ص 181)

أيا كان الأمر فما يمكن قوله في هذا المقام، هو أن " نوربرت إلياس" قد دخل عالم السوسيولوجيا من هذا الباب، أو من باب الأحداث الظريفة، وقد نحت بهذا الخصوص مفهوم "حضارة آداب السلوك" الذي خصه بثلاثة (03) مجلدات، ويمكن اختزال الفكرة التي تمحورت حولها في أن الحضارة مسألة في آداب السلوك. (كابان، 2010، ص 181).

1- مفهوم الشكل أو المظهر الخارجي عند "نوربرت إلياس":

لقد وضع "نوربرت إلياس" من خلال مفهوم الشكل، أو مفهوم المظهر الخارجي، مسألة التبعيات الإنسانية المتبادلة في قلب التفكير السوسيولوجي. وقد أدت به نظرته حول الحضارة الغربية على الأقل، إلى وضع رسم بياني مفهمي، حول تعقد، وتشابك العلاقات الإنسانية. واقترح لشرح وتوضيح ذلك صورة الشبكة، كمثال واقعي، يعبر عن حقيقة تعقد التبعيات المتبادلة بين الأفراد في المجتمع. حيث تهدف صورة أو مثال الشبكة إلى جعل هذا المفهوم – مفهوم المظهر أو الشكل الخارجي- مفهوما وواضحا وملموسا.

يقول " نوربرت إلياس" في هذا الصدد: تصنع الشبكة من عدد من الخيوط المترابطة. إلا أنه ومع ذلك، فلا مجموع هذه الشبكة، ولا الشكل الذي تأخذه الخيوط المختلفة فيها، يمكن أن يُفهم انطلاقاً من خيط واحد من هذه الخيوط ولا حتى من جميع هذه الخيوط في ذاتها، لأن هذه الخيوط لا تفهم إلا بفضل تجميعها، وبفضل علاقتها التي تربطها فيما بينها. وهي العلاقة التي تخلق حقلاً من القوى يُنْقلُ نظامُها إلى كل خيط من هذه الخيوط، بل ويُنقل إلى كل خيط بكيفيات تختلف لحد معين عن بعضها البعض، أو بحسب وضعية ووظيفة كل خيط من هذه الخيوط ضمن المجموع، أو ضمن هذه الشبكة من الخيوط. مع العلم بأن شكل كل خيط من خيوط هذه الشبكة يتبدل بتبدل الضغط الواقع عليه، كما تتبدل بنية مجموع هذه الشبكة ككل، بالرغم من أن هذه الشبكة من الخيوط مجرد تجمع لخيوط مختلفة "وحيث يشكل كل خيط من هذه الخيوط بداخل هذا الكل وحدة في ذاتها، وهي تحتل مكانة متميزة، وتأخذ شكلا خاصاً.(Paugam,2008, pp 97,98)

SISSAOUI FADILA

نفهم من ذلك بأن الأفراد يرتبطون ببعضهم البعض، أي عبر جملة من قيود من التبعية المتبادلة، والتي تنطبق أيضا على تشكيلات اجتماعية أخرى، تتميز فيما بينها بأحجام مختلفة، أو متباينة، ومنها: الطبقة الاجتماعية، جماعة الأصدقاء، رواد المقهى، روضة الأطفال...إلخ. ضمن هذا الطرح يصرح "نوربرت الياس": " إذا نظرنا من الناحية الجسدية نرى ان الأفراد الذين كانوا، وكذلك الذين مازالوا طيلة حياتهم في التصاق دائم بأحضان المجموعات والتجمعات البشرية العائلية والقبلية والعشيرية ما قبل الوطنية، لم يكونوا أقل تمايزا وتباينا عما هم عليه أفراد المجتمعات الوطنية الحالية الأكثر تمايزا". (الياس، 2014، ص 154) وبمعنى آخر فإن صفة التمايز والتباين المتزايد بين الأفراد في المجتمع الواحد، هي ميزة للمجتمعات الحديثة، أو المجتمعات الوطنية على حد تعبيره التي تقوم أكثر فأكثر على الفردانية، والتي هي حدث في سياق عملية التوجه نحو مزيد من التمدن، أين يتعلم الأفراد ممارسة الكبت الذاتي لعواطفهم، وكبح جماح الدوافع السلوكية العفوية. وهو ما يخلق داخل كل فرد الذي سيدخل لا حقا في علاقات مع "الخارج"، الشعور بوجود "داخل" لديه يخصه بذاته، أي لا علاقة للآخرين به. (الياس،2014، ص 155)

2- تعددية الروابط عند "نوربرت إلياس":

يؤكد بدوره "نوربرت إلياس" على فكرة تعددية الروابط الاجتماعية في المجتمع، وهي الفكرة التي يطلق عليها تسمية: "مُستوى الاندماج " ويقر بوجود مستويات متعددة من الاندماج، تميز المجتمع الإنساني في مستواه الحالي من التطور. وبالفعل يقول " إلياس" فنحن كذوات نقوم بعملية انتقاء من بين عدد من المرجعيات بالنسبة لـ " النحن" عندما نقول بأن الأفراد يحددون، أو يعرفون على هذا النحو عائلتهم، أو دوائر الأصدقاء مثلما القرى والمدن، التي يسكنونه، والمجموعات الوطنية، التي ينتمون إليها. لا بل وحتى الأشكال الخارجية ما بعد الوطنيات، أو ما بين عدد من الدول من نفس القارة، والإنسانية ككل. إن ما نلاحظه هنا وبشكل محسوس، أو بوضوح تام هو: كثافة هذا التعريف بالذات، قياسا بهذه المستويات المختلفة، والمتعددة للاندماج.

إن الالتزام أو الارتباط الذي يُعَبَّر عنه بواسطة استخدام ضمير " النحن" يكون في العادة أكثر عمقا، أو أقوى وأشد عندما يتعلق الأمر بالعائلة، أو بالجماعة المحلية، أو بالجهوية، أو بالانتماء الوطني.

SISSAOUI FADILA

وفي المقابل تخف النبرة العاطفية لهوية "النحن" أو تضعف بشكل واصح ومحسوس عندما يتعلق الأمر بأشكال الاندماج الما بعد وطنيات. مثال: اتحاد الدول الإفريقية، الأسيوية، والاتحاد الأوربي... الخ.

إن إقرار " نوربرت إلياس" هنا بتعدد مستويات الاندماج لم يمنعه بالمقابل من التأكيد على مفهوم " الداخل" و"الخارج" حيث يبقى المخطط الأساسي للصورة الذاتية وللصورة الإنسانية بشكل عام على حد تعبيره معتمدا على تصور هذا " الداخل" المنفصل عن "الخارج" بجدار غير مرئي، حتى في تلمك الأنماط الأكثر تقدما من التخصصات المجتمعية والفردانية. (إلياس،2014، ص 159)

وإلى جانب ما تقدم فقد عالج "نوربرت إلياس" في كتابه ما السوسيولوجيا؟ وتحديدا في الفصل الخامس منه المشكلات التي يطرحها تحليل الروابط الاجتماعية. ففيه تطرق وبشكل خاص إلى العلاقات العاطفية التي يرى بأنها تحتاج إلى اهتمام خاص. حيث ذكر بأن الإنسان يأمل دوما في الالتقاء بأناس آخرين، ولذلك نجد بأنه مرتبط بشكل كبير بغيره من الناس، والأمر هنا يتعلق بعلاقات التبعية الكونية المتبادلة التي ترتبط الناس ببعضهم البعض على المستوى الاجتماعي، وهي التبعية الابتدائية التي لا تتحدد في الحاجات الجنسية فقط، لأن الناس في حاجة إلى بعضهم البعض من أجل إشباع تطلعاتهم العاطفية، وهنا يمكن الحديث عن القيم العاطفية الموجَّهَة نحو الغير، حيث يجد البعض بمن يرتبط، بينما يبقى البعض الآخر في حالة بحث عن نقطة تثبيت بما يتناسب وصورة الإنسان المنفتح، الذي يبحث عن علاقات تمنحه الإثارة العاطفية. (Paugam,2008, pp 102,103)

وعليه فإن الرابط العاطفي ليس رابطا خارجيا عن الفرد. ففقدان شخص عزيز على سبيل المثال يؤدي إلى الشعور بخسارة جزء من ذات الشخص المعني بهذا الفقد، والصورة "أنا/نحن" المُشَكِّلة لهوية هذا الشخص أو ذاك تتكسر، فيتبدل مجموع الشبكة العاطفية، وذات الشعور يحدث عندما تنتهي علاقة حب أو علاقة صداقة.

باختصار يتفق "نوربرت إلياس" مع "دوركايم" حول فكرة ارتباط الروابط الاجتماعية في المجتمعات الحديثة بتقسيم العمل، وبالتكاملية العضوية بين الأفراد داخل المجتمع. لكنه – "نوربرت الياس"– ومع ذلك يوصي بضرورة عدم الاكتفاء بالقول بالتبعية المتبادلة بين الأفراد، إذ يجب إدخال فكرة التبعيات المتبادلة بين الأفراد والروابط العاطفية على وجه الخصوص، باعتبارها عوامل للرابط الاجتماعي. ذلك أن الروابط العاطفية الشخصية تقودنا إلى تحليل مجموع الشبكة العلائقية للفرد، كما لو كانت قطعة

SISSAOUI FADILA

نسيج تمت حياكته انطلاقا منه من ناحية، وباعتباره مكوناً لذاته من ناحية أخرى. (Paugam,2008, pp 104,105)

إن المرحلة الحديثة التي نعيشها يقول " نوربرت إلياس" ليست سوى مرحلة من عملية طويلة من التطور الإنساني، أصبحت في سياقها حلقات الأعمال المتشعبة، تتزايد وتتعد فروعها بشكل دائم ومستمر، إلا أنه ومع ذلك لا زالت حاجة الأفراد لبعضهم البعض، بل وازداد ارتباط الناس ببعضهم، بالرغم من أنهم أصبحوا أكثر شعورا بفردانيتهم عن ذي قبل. فازدياد تقسيم الوظائف وتراتبيتها المتدرجة نحو الأعلى باتجاه مركز واحد يكشف عن الحاجة الى الترابط والتنسيق، وبالتالي توجه العلاقات الإنسانية نحو مزيد من التضامن والتعاون بين الأفراد المتمايزيين فيما بينهم داخل المجتمع. واما التمايز بين الأفراد فليس إلا جانب من جوانب الطابع الإنساني او الحالة الإنسانية التي يعبر فيها الأفراد عن استقلالهم عن غيرهم من الأفراد، الذي يبقى في جميع الأحوال استقلالا نسبيا، وعن سعيهم المتزايد لتحقيق أنفسهم، وتكوين معنى مميز لأنفسهم، يكونونه هم بأنفسهم، او يقومون به لوحدهم، ذلك أن هذه الأنا المثالية صفة لصيقة بالأفراد ودونها سيفقدون هويتهم كأشخاص امام أنفسهم، وإن كانت ليست جزءا من طبيعتهم، ولكن شيء تطور بداخلهم نتيجة لما تعلموه في مجتمعهم. (إلياس، 2014، ص ص170- 174)

SISSAOUI FADILA